

الہدایہ والنباہ

مرکز تحقیقات کمپیوٹر علوم اسلامی

نشوء الوجدان وتكامل الانسان

هذه محاضرة قيمة ألقاها عضو المجمع العلمي العراقي صاحب المعالي الدكتور ناجي الاصيل مدير الاثار القديمة العام في قاعة المجمع العلمي العراقي في مساء يوم السبت الحادي عشر من تشرين الثاني سنة ١٩٥٠ ، تناول فيها معاليه أهم قضية انسانية عامة ، تلك هي قضية نشوء الوجدان لدى البشرية وتطوره وخاصة فيما يتعلق باثره في احوال التكامل الانساني وذلك في خضم ازدهار الحضارات العراقية المجيدة في ربوع وادي الرافدين .
« سومر »

ان للبحث في نشوء الوجدان علاقة قريبة أو المتناسكات من مظاهر الحياة على وجه الارض ، بعيدة بكثير من العلوم الحديثة التي تبحث في شؤون الطبيعة وستنها وفي نشوء الحياة على وجه الارض وتشعباتها وفي احوال الانسان القديم وتطوراته في الأدوار الاولى التي مرت عليه قبل ان يكون الانسان شيئاً مذكوراً ، كما انه توجد صلة وثقى بين البحث في تكامل الانسان وبين ابحاث العلوم الاجتماعية والنفسية والدينية والفلسفية . فبينما تقع ساحة البحث العلمي لدراسة كيفية نشوء الوجدان في ابحاث ما قبل التاريخ ، تؤلف صفحات التكامل الانساني المختلفة موضوع تاريخ الحضارة .

فالعلوم الحديثة التي تبحث في مختلف الصفحات من شؤون المعرفة ، وفي الحلقات

التتصل ، بعد ان تقطع عوالم الاحياء ، بالانسان القديم وهو يقطع القارة الافريقية من الجنوب الى الشمال ، ويتنقل بين الكهوف والاحراش ، باحثا عن وسائل العيش وسبل البقاء ، وهو في صراع دائم مع القوى الطبيعية ومع سائر الحيوانات وفي تكيف وتكيف مستمرين ، الى ان يستقر به المقام بعد مئات الوف من السنين في اعالي وادي الرافدين من جهة وفي وادي النيل من جهة اخرى . ومن ذلك التاريخ البالغ في القدم اصبح الان من الممكن تتبع الخطوات الصعبة التي خطاها الانسان القديم عند اتقناله من الدور الحجري القديم الى الدور الحجري الحديث .

ان العصر الحجري الحديث يبدأ في العراق

البذور . ولما كان بوسعه الاستمرار في الزرع لو لم يستطع الصبر والانتظار على البذرة لكي تنمو مع الزمن فيزرع في فصل معين من فصول السنة ليحصد في موسم آخر وان العناية التي تتطلبها الزراعة هي من الامور التي تستلزم الاحاطة بما يتعلق ببحرث الارض وزرع البذور واروائها والاستمرار على ملاحظتها زما غير قليل حتى تنمو وتضج وتكون معدة للحصاد ، هذا من جهة ومن الجهة الاخرى فان انشاء المساكن مهما كانت بسيطة تتطلب بعض المعرفة في كيفية اقامة الجدار وتسقيف ما بين جدار وجدار ليكون منها كوخ صالح للسكنى . وكذلك التعاون بين الانسان والانسان فهو يستلزم تبادل الشعور وتقايض المنفعة وان استمرارهم في الاستيطان في مكان معين لعمل معين ، لتحقيق النفع العام مما استلزم التفاهم على بعض المبادئ الاولى لتنظيم العمل المشترك بينهم ، فهذه الامور كلها تدل على ان ذلك العامل الباطني الذي اوجد هذا الانقلاب الكبير في حياة الانسانية ما هو الا نشوء الوجدان في الانسانية . ذلك الوجدان الذي كان رفيق الانسانية ودليلها في الانتقال من هذا الدور الى دور ارقى منه وهو الدور الذي يشمل بانشاء المدن حيث فتحت امام الانسانية سبل جديدة في مضمار الارتقاء والتكامل والحضارة .

فالذبات الاولى في صرح الحضارة الانسانية انما اقامها في الحقيقة الوجدان الناشئ . فهو الذي اقامها على تل صغير من الرمل في اول مدينة معروفة في العالم وهي مدينة اريدو . ومن البديع ان يكون اول بناء شيدته الانسان في اقدم مدينة

حسب الانوار التي اكتشفت حتى الان ، قبل نحو ١٠٠٠ سنة وهو دور استثنائي عظيم يمثل حالة انتقالية من مستوى احط الى مستوى ارقى .

فبينما كان الانسان قبل ذلك يتخذ من الكهوف مساكن يلجأ اليها بعد ان كان يعيش في العراء وكان الصيد وجمع ما تمنحه اياه الطبيعة من قوت شغله الشاغل وكانت وسائله لا تتعدى الالات والادوات الحجرية التي كان يصنعها من الحجارة واذا به ينتقل الى حالة جديدة هي ممارسة الزراعة فيحرث الارض ويزرع البذور ويسقيها حتى تنمو ليحصدها ثم يبدأ بانشاء المساكن لسكنه ويتخذ من الطين آنية من الفخار ليستعملها في مختلف شؤونه البيئية فيستوطن الارض ويكون مجتمعات صغيرة ، تزرع وتضع وتتعاون فيما بينها للمحافظة على كيانها بعد ان كان يهيم على وجه الارض لا يرتبط بمكان ولا يتساون مع الانسان الا بما يسر له الصيد والانتقال من مكان الى آخر .

فمع الزراعة بدأ الشعور ينمو بضرورة تعاون الانسان مع الانسان الاخر ، ذلك التعاون الذي مهد السبيل الى تأليف اول المجتمعات الانسانية مع الزمن ومن السهل ان نرى في هذا الانتقال من الدور الحجري القديم الى الدور الحجري المتأخر ظهور عامل قوى جديد هو الذي وجه الحياة الانسانية وجهتها الجديدة . ان هذا العامل الجديد لم يكن وليد يومه بل كان نتيجة لتبلور الاختبار في الانسان ، الاختبار في شؤون نفسه وفي شؤون الطبيعة المحيطة به . فما كان له ان يبدأ بزراعة الحبوب لو لم تبلور في شعوره فكرة ظهور النبات من

كان معبدا ، يتعبد به الانسان الى تلك القوى القاهرة التي كان يعجز عن فهمها مع انه كان يشعر ولو بصورة غامضة بانها في نفسه . وان تلك الصلة التي بدأت بين الانسان وبين القدرة الخالقسة والتي بدأت في حدود آفاق من الشعور ضيقة وسايرت موكب الانسانية في ادوار الحضارة المختلفة فكانت مع الزمن مبعثا لتجليات خارقة ، هي التي دعت الانسانية للتطلع الى ما وراء السماء لتقتبس النور والادراك من ذلك المصدر الخفي .

قد لا يكون من السهل الاحاطة بكافسة العوامل التي دخلت في تكوين الوجدان ولكن لنا في كيفية نشوئه عند كل واحد منا درسا وعبرة مما يسهل علينا فهم ما وقع قبل آلاف من السنين مع ان التدريب والتهديب والتعليم قد اصبح من الامور المركزية القوية المنعول . لقد بقي الانسان القديم آفا مؤلفة من السنين وهو في حية بدائية بسيطة يتطور ببطء عظيم ويتبدل بعمر كبير حتى اذا ما قارب نمو جهازه العصبى من التكامل بدأ يتدرج في سرعة في التوسع المشاعر الحية والمدارك الاولية عن طريق المشاهدة والملاحظة والتعبير والتفسير ثم الرجوع الى تذكر الحدثات مما وقع في الماضي فوصل الماضي بالحل وصادر يتطلع من الحال الى المستقبل فتكون عنده مجرى شعور ، ذلك المجرى الخفي الذي هو الافق الباطني الذي ينشأ فيه الوجدان . وبنشوء الوجدان تفتحت امام الانسانية آفاق جديدة هي التي مهدت السبيل الى التكامل والارتقاء . فالوجدان الذي نما في مجرى الشعور الموصل بين الزمان والمكان لا بد وانه ابصر بشبح الوحدة الظاهرة بين الموجودات حوله فنظر الى

السماء فوجد فيها الشمس ذات المشارق والمغارب . والقمر بوجهه السوراني والكواكب الساحرات التي تنظر اليه من علمها العلوى وما يحيط به من هواء وسحاب يتساقط منه المطر فيولد الانهار التي تحيي الارض فادرك ان هناك قوى خفية هي التي تسيطر علىها وتوجد بينها ، قوى هي اعظم مما تستطيع ان تحيط بها مداركه ولكنها ظاهرة الاثر في الوجود فاراد ان يتقرب اليها بالعبادة ، ولكن هذا الشعور بالاتصال الخفي الكائن بين الموجودات هو الذي ساعد على نمو وحدة الشعور في الانسان ، ووحدة الشعور هذه هي الفارق الاكبر بين الانسان وسائر الحيوانات . وليس من العسير علينا ان ندرك ان التعبد الى اله واحد او الى عدد من الارباب يتزعمهم رب كبير في مكان معين مما يسهل على ابناء ذلك المجتمع ان يشعروا بالتقارب فيما بينهم . ثم ، فان مبدأ التعاون ذاته مما يوحد بين افراد المجتمع ويقارب بين قلوبهم وافكارهم . فلايمان الذي نشأ في تلك المجتمعات الاولى كان وليد معتقدات الاولين التي كانت هي بدورها وليدة اختباراتهم في الحياة ، اختبارات تتعلق بالارتباطات الكائنة بين الانسان والانسان الآخر من ناحية ، وبين الانسان والطبيعة من ناحية ثانية وبين الخلقه والخالق من ناحية اخرى .

فاذا نظرنا نظرة خاطفة الى حياة الانسان الضويلة لوجدنا ان مبدأ التطور في الجسم قد سبق مبدأ التكامل في النفس حتى اذا ما تكونت فيه عناصر الوجدان وظهر فيه آفاق الفكر بدأ مبدأ التسكامل النفسي يظهر قدرته في توجيه

لكل من النظامين تختلف اختلافاً بيناً . فالنظام الطبيعي الذي تحدث التطورات الجسمية ضمن اصوله وقواعده هو ذلك النظام البديع الذي يجعل من مختلف الاعضاء في الجسم وحدة متماسكة تعمل في الحفاء وتظهر بالحواس الخمس والفرائز والتي تهىء الجسم الانساني ليكون عضواً فعالاً في الحياة وساحة هذا النظام الطبيعي هي الاجهزة المختلفة التي يتألف منها الجسم والتي قضى الانسان مئات الالوف من السنين حتى تكاملت فيه ، واما ساحة النظام الفكري فهي مجرى الشعور المتكون من المفاهيم والمعاني والآراء والمبادئ . وبالنظام الطبيعي يتمكن الانسان من مشاهدة مظاهر العالم الطبيعي المحيط به ، وبالنظام الفكري يتوصل الى معرفة حقيقة تلك الظواهر ويدرك مفعول تلك القوانين الطبيعية المسيرة لها . ان اختلاف ساحات العمل في النظامين هو الذي حمل فلاسفة الاغريق الى فئدة تقسيم البحث فيهما الى عالمين - العالم الطبيعي وعالم ما وراء الطبيعة وذلك لاجل تسهيل الوصول الى البحث في حقيقة كل منهما مع ان الحقيقة الوجدانية هي واحدة في العالمين والعامل الفعال في التوحيد هو الوجدان نفسه .

فاننا نعيش اليوم في عالم الذرة ، ولقد علمنا ما في الذرة من طاقة هائلة ومن نظام قهار مسيطر عليها هو الذي يساعدنا على ادراك عظمة شأن الكائنات المادية . وما الذرة الا آجرة التكوين في ذلك النظام البديع القهار المتمثل بوحدة الكائنات فان استطاع علماء الذرة اليوم من اطلاق الطاقة الكامنة فيها فانهم انما توصلوا الى ذلك عن

شؤون الحياة الانسانية فمثلاً لذلك نذكر ان ما اكتشفناه من الهياكل العظمية في مقبرة اريبدو وهي من عهد العبيد من الالف الخامس قبل الميلاد قد اثبت تدقيقها العلمي انها لا تختلف في شيء عن السكنة الحاليين لجوب وادي الرافدين وهذا امر يدل على ان التكامل الانساني منذ سبعة آلاف سنة كان تكاملاً شعورياً فكرياً خلقياً اي وجدانياً اكثر بكثير مما هو وليد تطورات جسمانية . وان ما حدث خلال تلك المدة من حادثات عظيمة الشأن ومن ارتقاء وهبوط وتكامل وانحطاط وتقدم وتأخر ومن نشوء حضارات ذات خطورة وزوالها من الوجود وغير ذلك مما يتصل بتاريخ الانسان فهو موضوع نشوء الحضارة العالمية وتطوراتها وبتبعنا سلسلة الحوادث في حياة الامم والشعوب فانما نتبع في الحقيقة سيرة العقل الانساني في مختلف تصرفاته وفي القيم المعنوية التي تمسك بها او تخلى عنها في مختلف الظروف والاحوال . ان هذا هو النهج الصائب في علم الآثار ، الاركيولوجيا . ومما يسر حقاً ان اكابر العلماء الآثاريين قد اخذوا يركزون اهتمامهم في دراساتهم وبحوثهم الآثارية الى تشخيص الانسان الحي اكثر من الاهتمام باللقى لاجل القى فاصبحت اهمية الاثر ليست بقدمه وبصنعه وفنه فحسب بل بما يلقيه من ضوء على فكر الانسان ومشاعره في الزمان وفي المكان .

ان النظام الطبيعي المتمثل في الانسان بحيوية الجسم وحواسه وغرائزه والنظام الفكري المتمثل بمجرى الشعور والافكار والمبادئ هما في الحقيقة نظامان متصلان اتصالاً وثيقاً ، الا ان ساحة العمل

ان التكامل الانساني لا يتم الا بالجهود العظيمة التي يبذلها الانسان في تكوين وجدانه ونفسيته ، ضمن اصول وقواعد هي التي توجد فيه الوجدان الحى وتوصله الى التخلق بالخلق الكريم ، وثانيها ان الانسانية في تبدل حى مستمر ذلك لان عمر الافراد محدود في الزمان . وثالثها وهو في الواقع نتيجة طبيعية للامرين الاولين وهو ان سبيل الارتقاء والتكامل في الانسانية متقطع ، لا يوصل الا عن طريق مجهود الافراد . واما الامر الرابع فهو المتمثل في القول ان التاريخ يعيد نفسه . والحقيقة ان التاريخ لا يعيد نفسه فما يصبح جزءا من المكان والزمان لا يعيد نفسه . اما ما يعيد نفسه فهو تشابه الحوادث عند تماثل الاعمال : ان خيرا فخيروا وان شرا ففسدوا . واما الامر الخامس في سلسلة الحوادث في التكامل الانساني فهو ما يتعلق بالتجليات القدسية الالهية في حياة البشر فهي مصدر اعظم الانقلابات التكاملية في الحياة الانسانية فانها ينبوع النوراني الذي يستمد الوجدان القوى الروحية منه والبراس الخالد الذي يهتدى العقل بنوره وهداه . وبذلك التجليات القدسية التي هي بمثابة الروح من الاديان تتسامى العواطف الانسانية وتتوافق المدارك وتتوحد المشاعر .

طريق تفهم الفكرة من النظام الطبيعي بعد تبينهم سنن ذلك النظام ذاته لان تكوين صورة الذرة في المادة قد تمثله العلماء الطبيعيون نتيجة لاجتاهد علمية بحتة ، الامر الذي يجعل اعتبار جوهر المادة ومادة الفكر من مصدر واحد .

ان الاختبارات النفسية والوجدانية تحتاج الى تفسير علمي صحيح لتصبح ذات شأن في الادراك العلمي ، وبما ان الانسان تعلم العلم بالتدريج فلا النفس كانت في البدء واسعة الآفاق ولا الشعور كان واضحا صافيا ، ولا العرفان كان محيطا جامعا ، ولذلك كانت تفاسير الاقدمين لاختباراتهم الوجدانية تعتبر اليوم من قبيل الاساطير والحرفات ، ولكنها في ذات الوقت تترجم لنا عن محاولات الانسان المستمرة في كل مكان وفي كل زمان للتعرف بماهية الخير والشر ، والحق والباطل ، والعدل والظلم ، والنور والظلام ، وثم لمعرفة الصلة الكائنة بين الوجدان وبين الحق ، ذلك الحق العلى العظيم الذي كان ولا يزال معلم الانسانية الاول وينبوع نورها الدائم . فتبلور هذه الآراء في الشعور هو الذي يمسح الوجدان بصيرته والادراك موازينه ويعين للارادة وجهتها وللانسانية مجال الاعمال الصالحة النافعة . ومن المفيد ان نذكر قبل الانتهاء من حديثنا هذا امورا ذات شأن تتعلق بموضوعنا . اولها